الأساطير العالمية

د . أحمد كمال زكى *



فى الدائرة الكبيرة التى تشغلها العلوم الإنسانية تذكر الأنثروبولوجى Anthropology علم الإنسان، من البادئة anthropo ، ومعناها إنسان، واللاحقة Logy ، ومعناها علم أو نظرية أو مذهب، وهذا العلم يبحث عن أصل الجنس البشرى، واعتقاداته، وتقاليده. وفى عام ١٨٨٤ وضع فيه العالم سير إدوارد تيلور اصطلاح Culrural - anthropolgy يخص به المعارف الثقافية التى تهتم بها الانثروبولوجى من طقوس وصلوات ورقص وحكايات خرافية Fables وشتى العبارات التى تجرى مجرى الأمثال والحكم. ويطلق على هذه الأنواع اصطلاحا ethnography , ethnology لدى علماء الأنثروبولوجية الأمريكية بجانب علمى الآثار واللغة .

وقد وضح باسكوم Bascom الأمريكى أنّ الفولكلور Folklor من تلك الأنواع نفسها؛ فهو يهتم بالمعارف الشعبية ولا سيما الفن القولى والمتعلقة أنواعه بالأدب. وأما الكندى باربو Barbeau وبعض علماء أمريكا الجنوبية فأطلقوا على كل هذه جميعاً اسم التراث الشعبى Folk Tradition ، وآثر سير ويليام تومز تسميته بالآثار الشعبية القديمة Antiqui-ties على أساس أنه جماع المعتقدات الخرافية التى لا يزال إنسان هذا القرن يتلقطها من الحياة الموغلة فى القدم، وتظهر له أحيانا فى الحلم مثلما تظهرها المرويات المأثورة وسائر المدوّنات والنقوش والصور وغيرها من ضروب المأثورات الشعبية المتنوعة .

* أستاذ الأدب المقارن والنقد الأدبى بكلية الآداب جامعة عين شمس .

وأراح الألمان أنفسهم ـ ومعظم دارسي أوربا ـ عندما سموا الآثار الشعبية في دلالتها على الإثنولوجية بالفولكسكنده Volks Kunde المعنيّة دائماً بالأدب الشفاهي، وفي مقدمته الحكايات والأهازيج الشعبية التي لا يعرف لها مؤلف بعينه كالأمثال والنوادر anecdotes والملاحم epics والعادات الاجتماعية التي تصور حياة البيت وطقوس العبور وتتويج الملك وحمل التمائم، وطبع الكفّ على الحائط بالدم أو بالنيلة، كذلك تشييع الجنازات على أنغام الموسيقى وعروض السامر، ونحو ذلك مما ينقل من شخص إلى آخر أو من جيل إلى جيل على أساس أنها مكوّن قومي دارج.

ونخلص من كل ذلك إلى أمرين: أولهما أن مفهوم الفولكلور أو الفولكسكنده أو الأثنولوجية أو التراث الشعبي، أو المأثورات الشعبية يشمل الفنوان القولية ـ منثورا ومنظوما ـ بجانب العقائد والعادات الاجتماعية والمعارف القديمة. وثمة إجماع على أن هذا المفهوم وتلك الدلالة، أحد الفروع المستقله للأنثربولوجيا، ويجب العناية به لمعرفة أبعاد الحياة الثقافية المتحضرة .

هذا هو الأمر الأول، وأما الثاني فهو أن الأسطورة ـ وقد صارت اليوم مكوّنا مهما من مكوّنات الآداب العالمية المتحضرة ـ جزء من تلك الأفكار والمعتقدات والتصوّرات والطقوس المعرفية في تاريخ الجنس البشري. بمعنى أن الأساطير تؤخذ ـ كالحكايات الشعبية ـ مأخذ سائر الموروثات الثقافية التي تراكمت على مدى العصور ودُوّن بعضها أو أغلبها في الملاحم، بل إن بعض الدارسين ـ بعيداً عن الأدب ـ يقصرها على الأثنولوجيا؛ فتكون في أوسع مجال لها مطابقة للمفهوم الأمريكي للأنثروبولوجيا الثقافية في سعيها الدائب إلى تغطية الفجوات الزمانية التي يسكت عنها التاريخ الموثق .

صحيح نجد خلافاً حول جوهر الأساطير .. أهي تجميع لشتى حكايات خرافية قديمة، أم مجموعة أبنية طقوسية عبادية تفتت على مرّ الأيام إلى حكايات استحال بعضها إلى رموز في آداب العالم، وتدثر بعضها الآخر بدثار سماه كارل يونج ـ عالم النفس المشهور ـ باللاوعي الجماعي المنشيء للنماذج العليا، أو النماذج الأولية Archetypes في تصوّراتنا العامة.

وفي كل الحالات تُعدُّ الأساطير الأساس الإدراكي لما يرويه التاريخ الوثائقي والنصب الأثرية عن مصر القديمة والهلال الخصيب والإغريق، وعن تفاعل عناصرها السكانية ـ الساميين والآريين و الحاميين ـ بعضهم ببعض . ليس في تأكيد الجينات القومية

المتباينة، أو إنكارها فحسب، وإنما كذلك فى مراجعة التتابع المنطقى الذى يقدم لنا صورة دقيقة لتطوّر الإنسان من بدائية غيبية إلى تحضرية ملموسة .هذا على الرغم مما يعتريها أحياناً من أفكار هلامية متسللة من المراحل المبكرة وتتسع لها الحكايات الشعبية .

الأسطورة إذن أوالميث Myth ـ وقد سماها أرسطو خرافة ـ من سلالة هذا الجانب المعرفى للإنسان، وليس هناك شعب من شعوب الأرض خلا تراثه من بعض أنواعها. ويعكوف العلماء عليها جُعِلَ لها علم فى الثقافات العالمية هو الميثولوجى My-thology نظرية تقرر ــ فى إيجاز ـ أن أبطال الحكايات الشعبية لا وجود لهم تاريخياً أو واقعياً، لأنهم يستندون دائماً إلى موروث شعبى خارق انحدر من أساطير الأولين وخرافاتهم منذ آلاف السنين .

وتبدو الميث / الخرافة هنا ـ وأعنى بها مادة الأسطورة ـ أقدم مصدر لجميع المعارف الإنسانية. ومن هنا ترتبط الميث / الخرافة دائماً ببدائيات البشر وقبل أن يمارسوا السحر، وكانوا يديمون التأمل فى إجاباتهم عن أسئلة كونية يطرحونها على أنفسهم: ما الشمس ـ مثلا ـ ومن يسوقها ويسوق الريح، ويشعل النار فى قصف الرعد. وهنا يقول ليفى برول الفرنسى «لم تنشأ الأساطير والطقوس الجنائزية وعمليات السحر ونمو النبات ـ فيما يبدو ـ عن حاجة الرجل البدائى إلى تفسير الظواهر الطبيعية تفسيراً قائماً على العقل، لكن هذه نشأت استجابة لعواطف الجماعة القاهرة» . يريد استجابة لما تقع عليه أعينهم من ظواهر طبيعية، وما يحاولون به أن يعللوا بعض مشكلات الإنسان فى الحياة .

وفى مرحلة تالية ــ وقد كثرت الأسئلة واشتجرت الإجابات عليها ـ تراكم تراث معرفى من الأساطير، وصاحب هذا التراكم مأثورات دارجة Popular antiquitcs تقصّ أطرافا من علاقات الناس بمختلف معبوداته وأنواع مقدساته التى يطلق عليها اصطلاح الطوطم Totem . وهنا أو على هذا النحو توفرت بين أيدينا مجموعة أساطير أبرزها الأسطورة الطقوسية، والأسطورة التعليلية، والأسطورة الرمزية، ثم الأسطورة التاريخية المؤسطرة .

الأولى من الأربع مرتبطة أساسا بطقوس العبادة، وأهم ما فيها الجزء الكلامى المصاحب لعملية تقديم القرابين. ولقد زيد فى هذا الجزء حتى غلبت عليه حكايات عن سير الآلهة القديمة، وفى تراثنا منهم يغوث، ويعوق ، ونسر، وفى الأبعد عند المصرين الأوائل أناشيد إيزيس تحكى فيها عمليات الخلق. ويصاحب السَّرْد ترتيل نسوة

يصنعن دُمى ترمز لأوزيريس الممزق، ويلقين بها فى نهر النيل بغية أن يعود أوزيريس إلى الحياة ثانية. ولتلك الأسطورة ـ وقد تسمى بأسطورة البعث ـ أصول نقشت ضمن نصوص التوابيت، ويرجع تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد . وعند البابليين من هذا النوع الأسطورى نصّ إينوما إيليش Enuma Elish الكامل ، وهو نشيد ترنيمى يقدمه كهنة بابل فى أثناء طقوس جنائزية تُؤدَّى كلّ أول عام عند البابليين. ويقرر صامويل هوك فى كتابة أن هذا النشيد يمثل أسطورة الخلق(١) .

وأما الثانية ـ أعنى التعليلية ـ فلم تجد طريقها إلى الوجود إلا بعد انتشار وجود كائنات خفية إزاء ما هو قائم من الظواهر الطبيعية، يربط بينهما سحر الكهنة، وتمارس طقوسه فى حالات انفجار البركان وقصف الرعد وانشقاق الأرض عن سوق النبات التى تزرع، ونحو ذلك من منطلق كهنوتى يؤكد أن وراء تلك الظواهر أرواحاً لابد من استمالتها بقرابين وأضاح تقدم لها. وبمرور الأيام ظهر أن سحر الكهنة ـ ولديهم كان علما سريا ـ يستهدف تحقيق رغباتهم . ومن هنا لا نعجب حين يروى تاريخ الفراعنة أن السحرة ادعوا قدرتهم على إخضاع الآلهة لهم، بل هددوا ببعثرة عظام أوزيريس تخويفاً للرعية. وقد نشب صراع بين الرعية وبينهم من حيث كونهم علماء قادرين، وحدّوا من تأويلات الشعب لكل ما يراه مثيراً، أو محبطا لأعماله .

لكن التحرر من هيمنة الكهنة ـ بسحرهم ـ جاء بعد نموّ العقل بوجه عام، ووُجدت من تراثهم مجموعة هائلة من الحكايات تضمنت حشداً من تفسيرات لعمليات شروق الشمس وغروبها، وازدهار الأرض فى الربيع وجدبها فى الشتاء، وثورة البحر أو هياج النهر، وطلوع القمر واختناقه، ووجود البقع فى جلد الفهد، أو ما يجرى هذا المجرى مما يلفت النظر.

وأما الأسطورة الرمزية ـ وهى النوع الثالث من الأساطير ـ فقد ولدت فى مرحلة زمانية كانت أكثر تعقيداً وتقدماً فكريا. وربما كانت نتاجاً للأسطورة التعليلية إذا لحظنا أنها تصوّر بطريقة مجازية أفكاراً دينية، أو كونية. وعدّها المشتغلون بتاريخ الحضارات رفيقا للأساطير التعليلية، وقد شكلا معاً بدايات العلم قبل عصر الفلسفة والديانات السماوية .

ويجيء الرمز من مثل ما حاكته الروايات العربية عن سهيل والشعرى اليمانية والغميصاء؛ فقد هذه الغميصاء ـ أو الغموص ـ فى مجرة واحدة مع الشعرى

(1) Middle Eastern Mythology . P.P 12 , 23 .

اليمانية، وكانت تعشق سهيلاً الذى أوقعته الشعرى فى حبالها وهربت به إلى اليمن، وحزنت الغميصاء وظلت تبكى حتى غمصت عيناها، وهكذا تبدو دائماً فى السماء أسيفة موجعة .

وربما لو قرأنا أسطورة كرونس عند الإغريق لفهمنا التفسير الرمزى على نحو أكثر وضوحاً. فلقد كان كرونس أحد التياتن Titans ابنا لأورانوس (السماء) وجيا (الأرض). واعتاد أن يأكل أبناءه لأنه أنبىء بأن أحد أبنائه سينافسه فى القوة والجبروت. ولما أنجب زيوس ـ وقد صار كبير آلهة الأوليمب ـ فاته أكله، فقضى زيوس على جميع التياتن إلا كرونوس وفئة قليلة منهم بروميثيوس، وصار كرونوس رمزاً للزمن الذى لا يفنى ويُفْنِي الآخرين.

وفى تراث الفراعنة ـ وهو أساس لما انتشر فى الهلال الخصيب من أساطير ـ نرى المعنى الرمزى يتجلى فى أن الصراع الذى نشب بين أوزيريس وشقيقه وخصمه، ثم بين ست وحورس مقابل لظهور ثلاث ممالك فى مصر تصارعت على السيادة. وهذه الممالك هى مملكة شرق الدلتا الأوزيريسية، ومملكة غرب الدلتا الحورسية، ومملكة الجنوب التى كانت فى حوزة ست.

وبنجاح حورس فى قتل عمه الذى قتل أباه ومزق جسده، تم توحيد الشمال والجنوب الأول مرة فى التاريخ. وقد وجد المصريون القدماء ـ علي ما جاء فى شروح كتاب الموتى ـ أن الصراع اليومى للشمس ضد الظلام يمكن أن يفسر بسهولة صراع حورس الأوزيرى مع ست انتقاما لأبيه(١) .

ومن قبل هذا التفسير للمجازات، نفسر قولنا «الأرض أمنا» و «جميل القوم جمل» و «وإلى التراب نعود» على أساس كونها إشارات إلى وقائع تضرب فى أعماق التاريخ!

وأما النوع الرابع من الأساطير، فيمكن تسميته بالأسطورة الملحمة Legend وجماعها تاريخ وخرافة Myth. وبعض باحثى الانثروبولوجى ـ جون لويس - يرى أن بطلها كان فى مرحلة من مراحلها إلاها، أو نصف إله ثم صار كاهنا، أو رجل دين. على أنها فى تضمنها عناصر تاريخية وخوارق تزُجَى فى سياق الحكايات، تتحدَّد فيها أماكن بعينها على خارطة الدنيا، كطروادة ـ مثلاـ ومأرب وقرطاجنة والأشمونين. وهذه الأخيرة تقع بمحافظة المنيا وأصلها «شمول بيتا» كانت عاصمة الجنوب وسكنها الإله تحوت منذ كان اسمها «خمينو»، وسميت فى القبطية «خمن»(٢) .

(١) كتاب الموتى : ص ٢٥٣ .

(٢) السابق ص ١٤ ، ١٩٤ .

ويعدّ هذا النوع من الأساطير أبدع ما أفرزته حياة الأولين، ولعل ملحمة جلجاميش البابلية ـ وهى أهم فى القيمة التراثية مما أثر عن الإغريق ـ أقدم ما حفر على ألواح الطين بحروف عربية بابلية، وترجمت إلى الأشورية والحثية والحورية، كما وجدت قطعة منها فى مجدّو Magiddo ـــ فلسطين ـ بالكنعانية وترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وقيل فيها إن مؤلفى التورارة الأوائل كانوا على علم بها(٢).

ومن الضرورى على أية حال أن نحتاط بعض الشىء فنفرّق بين ضربين من الحكايات فى الأسطورة الملحمية. أولهما يُعنى بأبطال دخلوا أساطير الرموز ـ مخاطبين شتى القوى الفكرية والروحية ـ من أوسع الأبواب كأوديب وسيزيف وأوليس وجلجاميش وزرقاء اليمامة ومضاض الجرهمى . وثانيهما دخلوا التاريخ بعد أن طمست أعمالهم أوزيد فيها وحرّف ، ومن هؤلاء رولان وأندرياس وهانيبال وشمشون، وقد تكون أعمالهم التى بين أيدينا مختلطة بأعمال غيرهم من الغزاة التاريخيين، أو الأبطال الخرافيين.

هذا وتدخل الدائرة نفسها ضروب أخرى من الحكايات الأسطورية وبخاصة تلك التى تعرض للعبور . ومنها رحلة المخاطر فى سبيل تولية العرش الملكى المقدس، وهجرة الأبطال قبل إقدامهم على عمل كبير يتعلق بأمور المعتقد، أو العبادة. ومن هذا القبيل حكايات الآلهة والإلاهات، وتفترق عن غيرها فى أنها لا تتضمن عناصر تاريخية ولا تعرض لنظام القبيلة، أو الأسرة وسياستها. بل قد لا تقف عند المعتقد الدينى، ولا تعنى بقوى السحر الخارقية.

وأشهر الإلاهات الكبرى، الأرض ربة الخصب والمعبودة الأولى . وهى عند اليمانيين عثتر وعند البابلين والسوريين عشتار، وعند المصريين إيزيس، وعند الإغريق جيا. وكان القمر فى أول أمره ـ عند غير العرب ـ أنثى ذات ثلاثة أوجه تمثلها هلالا يرمز للأنثى الشابة، وبدراً يرمز للمرأة الناضجة Mature ومحاقا يرمز للعجوز المسنّة . وباحتلال الشمس مكانة القمر ارتبطت بها ثلاثية أخرى هى الربيع والصيف والشتاء، ورمز للربيع بعذراء شابة، وللصيف بامرأة مكتملة وللشتاء بامرأة حيزبون. وهناك ثالوث آخر قوامه وجود إلاهة للنسيم Silene وإلاهة للأرض والبحر هى Aphrodite وإلاهة شمطاء لعالم ما تحت الأرض والبحر هى Hecate

(١) هو الذى رأى ، بيروت ص ١٠ .

أما إذا دخل العنصر البشرى فيما يحكى من وقائع خارقة للطبيعة كحكاية نركيسوس وإيكو Narcissus & Echo سمى ذلك حكايات خرافية. ومن هذه الخرافات عند العرب القدماء ما أوردته الأثبات عن صدى المقتول الذى يصور دائماً بهامة تحوم فوق قبر الميت صارخة: اسقونى.. اسقونى! وهذا جرير يذكر الصدى بقوله:

إذا ما الليل هاج صدى حزيناً

بكى جزعاً عليه إلى الممات

ويذكر صدى آخر لمزاد بن الأقعس قتل ولم يأخذ أحد من عشيرته بثأره «وبات الصدى يدعو عقالات وضمضما» .

وكذلك القصص التى أبطالها صنوف الحيوانات Fablieux ، ومنها بطبيعة الحال «كليلة ودمنة» التى وراءها أكثر من مغزى سياسى اجتماعى هدف به ابن المقفع إلى تدمير الدولة العربية .

ويطول الحديث بعد ذلك ويتشعب، ويؤكد في كلّ الأحوال أن الأسطورة فعل حضارى بدأ جزءاً من العبادة ، ثم تحول إلى حكايات عن آلهة ومردة وأبطال، وفى مرحلة ثالثة ـ وقد استخدم للتعليل والرمز ـ صار فلسفة، أو وجهات نظر تهتم بكل ما يسعى وراءه علماء الحضارة.

فماذا يعنى كلّ ذلك؟

يعنى أن الأسطورة ـ وقد صارت لحمة علم هو الميثولوجى ـ ليست من قبيل الخرف الذى معناه فساد العقل «نقول خرف الرجل يخرف»، وإنما من سياقات الخرف والخراف والخرافة «نقول خرف الرجل يخرُف أى أخذ من طرُق فواكه الخريف التى هى الخرافة». وفى لسان العرب أن الخرافة تعنى أيضاً الحديث المستملح من الكذب ، وذكر ابن الكابى فى «كتاب الأصنام» أنّ خرافة رجل من بنى عذرة، أو من جهينة اختطفه الجن، ثم رجع إلى قومه يحدثهم مما رأى عجباً فكذبوه، ولما طلب الرسول عليه السلام من السيدة عائشة أن تحدثه قالت: أما أحدثك حديث خرافة. فقال لها عليه السلام : خرافة حق!

وإذا ألحقت الألف واللام بخرافة صارت تعنى الحكايات الموضوعة من حديث الليل يجرى على كلّ ما يستملح ويتعجب منه. وأما الأساطير التى هى جماع خرافات فإنها ـ على عكس كلمة خرافة ـ استعملت فى القرآن الكريم فيما يمت للقدماء من أحاديث وما سطر فى الصحف الأولى، قال سبحانه وتعالى فى الأنفال «إنْ هذا إلا أساطير الأولين» . أى ما ذكروا من أعاجيب الأحاديث سطرت فى كتبهم المقدسة، وقال تعالى فى الفرقان «وقالوا أساطير الأولين

اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا». أى أنّ ما أنزل على الرسول - فى رأى منكرى رسالته - هو من قبيل هذه الأقوال التى حفظوها فى سطورهم. وإذا قال قائل «سطّر علينا تسطيراً» عَنىَ «ألف علينا وأتانا بالأساطير» والسطر هنا يعنى الأقاويل المنمقة المزخرفة، وهذا لا يخالف ما ورد فى اللسان عن الأساطير من حيث كونها «ديانة العرب وكهانتهم».

فإذا عدنا للقول إن لحمة الأساطير هى الحكايات التى وصفت معجميا بأنها خرفة - فاكهة الخريف - وخرافة بمعنى الحديث المستملح الكذب أى المتخيل، وأن منها ما يتصل بعبادة العرب وكهانتهم.. لأدركنا قيمتها فى التراث الإنسانى كله، وسنرى فى قادم إلى أى حد تأخذ بالباب الدارسين وكيف تملك زمام متلقيها شباناً كانوا، أو شيباً .

* * *

هكذا نرى أن الأساطير التى تحتل مكاناً مرموقاً فى الأنثروبولوجى - علم الإنسان - لم تكن مجرد حكايات ملأى بالغرائب وحافلة بقوى خارقة تقف وراء كلّ ما هو ملموس مُتبدٍّ فى العالم، وإنما كانت ثمرة جهد كاشف عن حقيقة الكون وبدايات الحياة وغاياتها. ومن ثم عُدت وثيقة أو مجموعة وثائق عن مراحل تطوّر الإنسان بدءًا بالرمال تحت قدميه ونهاية بآليات فعل الشمس والهواء والماء وحركة النجوم والكواكب فى شرائط وجوده.

ومن هنا - إضافة إلى نشأتها الدينية من حيث هى طقوس وقرابين - صارت الأساطير أداة من أدوات المعرفة وطريقاً للوصول إلى استكناه الواقع بوضع نظام معقول لموجود «يقنع به الإنسان ويجد مكانه الحقيقى ضمّنه ودوره الفعال فيه . إنها الإطار الأسبق والإدارة الأقدم للتفكير الإنسانى المبدع» كما يقول بعض الباحثين(١) ولم يكن غريباً والأمر كذلك أن تشكل بطرائق البحث فيها علم سمّى بالميثولوجى Mythdogy وأساسه my-tho مأخوذ عن الكلمة اليونانية mutho التى تعنى Fable بمعنى حكاية مقدسة عن الآلهة ونصف الآلهة الأبطال.

ومنذ نهاية القرن التاسع إلى اليوم ظهرت - وستظهر - شتى نظريات فى تفسير الأسطورة ووظيفتها فنيا ورمزيا فضلا عن كونها تاريخاً اجتماعيا لما قبل التاريخ. وفى دراسة يونج جاوز بها ما بيّنه أستاذه فرويد فى علاقتها بالأحلام، ورأى أن الأساطير موروث لم يفهم بعدُ كما ينبغى، وأنّ اللاشعور الجمعى عند كل

(٥) فراس السوّاح ، مغامرة العقل الأولى ، ط . بيروت ١٩٨٠ ، ص ٩ .

إنسان هو مناط الأساطير التى عاشت فيه ـ دون أن يدرى ـ ويتحدث برموزها كما تشكل أحلامه .فكانها ـ كما يقول إريك فروم ـ لغة منسية لا يتذكرها إلا نائما يحلم، وأهمل فروم دورها فى تكوين تخيلاته .

وأيا ما كانت الآراء حول الأساطير العالمية ـ وكلها ذات منبع واحد، أو منابع مجهولة متقاربة ـ فإن عدها حكايات شَكَّلَ وقائعها المرموقون من الآلهة كأمون ورع وزيوس وبطانة إيزيس من معبودات الشعوب كافةً لاشك يتسق وتطلعات الأزمنة الأولى لتخرج الكون من عمائه، أو من سديميته. وكان على الشعر ـ أول فنون العالم القولية لارتباطه بالطقوس ـ أن ينتظرطويلاً قبل أن ينفصل عنها. ومن ناحية أخرى حملت الحكاية بأبطالها الكبار كأوزيريس وجلجاميس وزيوس طابع القداسة. فإن كان الأبطال بشراً، أو من الجن والمسوخ صارت حكاية شعبية مع ملاحظة أنها تعجز عن عَرْض إحدى قضايا الإنسان المصيرية. ولقد تتداخل الحدود بين الخرافة، والحكاية الشعبية، وهنا لا يطلب من أيتهما أن يبحث فيها عن مغامرة فكرية لإنسان عاش فى طور الحياة الأقدم!

وفى رأينا أن الأساطير المصرية هى أقدم ما شاع فى أرجاء الدنيا من أساطير، فنزعم من ثم أنها المصدر الأول الذى صدر عنه العقل البشرى. وقد حكت أسطورة أوزيريس ـ ربما بعد عصر الطوفان بقليل أى منذ وضع المصريون أمون على رأس آلهتهم بعد رع / الشمس ـ أنه كان فى السماء فأغرته إيزيس التى يعتقد الإغريق أنها أثينا الربّة بالنزول إلى الأرض فنزلا. وقد بيّنت إيزيس / الأرض / الأم الرءوم / محبة الحكمة، بينت للناس قيمة زراعة القمح والشعير. فى حين صنع لهم أوزيريس / النيل / قاضى الموتى / القمر / العالم العقلى / إله الحب.. صنع لهم آلات الزراعة، «وعلمهم كيف يعلقون الثور بالمحراث، ثم أعطى الناس القوانين وشريعة الزواج والتنظيم المدنى، وعلمهم كيف يعبدون الآلهة. وبعد أن جعل وادى النيل أمة سعيدة تخيرَّ جماعة من الناس للتوجه معهم إلى حيث يسبغ بركاته على بقية العالم، ففتح الأمصار وغزا القلوب فى كل مكان، لا بالسلاح وإنما بالموسيقى والبيان» (١).

ولَحِقْد أخيه ست / توفون عليه، انتهز فرصة عودته من مهمته الإنسانية وجمع فى وليمة تكريمة أكثر من سبعين رجلا حملوا له صندوقاً عجيب الزينة ولا يتسع إلا لجسمه وحده، وما إن دخله حتى أسرع هؤلاء الرجال بغلقه وصبّوا الرصاص المصهور

(١) عصر الأساطير لبولفنيش Bulfinch، الألف كتاب رقم ٥٦٤ ، ص ٤٠١ .

عليه، وألقوه فى النيل. وعبثا بحثت إيزيس عنه، لأن الأمواج حملته إلى شواطئ بيبلوس Byplos بفينيقيا وقد التفت عليه أعشاب بحرية كانت سببا فى بعثه إلى الحياة «شجرةً احتوت تابوت الإله داخل جزعها» وهوت الشجرة فحُمِلتْ بوديعتها إلى قصر الملك، ولما علم بذلك أنوبيس بن أوزيريس عن طريق سرب الطيور المقدسة، أخبر إيزيس فرحلت إلى الملك. وفى قصره بدت إلهة «يحيطها الرعد والبرق» وإذ مست الشجرة ـ وقد صارت عموداً ـ بعصاها السحرية انشقت ليظهر التابوت المقدس.

حملت إيزيس الصندوق إلى مصر، وأخفته فى أعماق غابة كثيفة، إلا أن توفون / ست اهتدى إلى مكانه، وأخرج جسد أوزيريس ومزقه إلى أربع عشرة قطعة بعثرها هنا وهنالك. وبعد كدٍّ طويل تمكنت إيزيس من أن تجمع ثلاث عشرة قطعة واستعاضت عن الأخيرة بقطعة من خشب الجميز، ووارت جثته التراب فى فيلو التى صارت مقدسة ويحج إليها المصريون كافة، فى حين سكنت روحة العجل أبيس apis وكانت تنقل بموته إلى عجل سواه يسقى من بئر خاصة وليس من ماء النيل الذى يسمّن وارده، فى حين يراد أن يكون الجسم الحافظ للروح نحيفا خفيفا .

تلك هى الخطوط العريضة فى حكاية إيزيس وأوزيريس، وتعليقا عليها من حيث هى أثر أسطورى نذكر أنّ بلوتارخوس اليونانى المتوفى سنة ١٢٠ كتب رسالة عن ذلك الأثر، ونشرت مترجمة فى «الألف كتاب» تحت رقم ٢٣٥ وعلى يد حسن صبحى بكرى، وقد قال إن بلوتارخوس هو «أول من عرّف العالم منذ بداية التاريخ الميلادى بهذه الأسطورة، فسرد حوادثها سرداً يكاد يكون كاملا بينما اقتضبتها النصوص المصرية القديمة ونشرتها مبعثرة على جدران الأهرام وجوانب التوابيت وصفحات البردى واللوحات الجنازية»[1].

ويعتقد الإغريق أن أوزيريس شبيه بالإله ديونوسوس[2] وإن يكن أكبر الآلهة لأن أباه زيوس ـ ربّ الشمس ـ أنجبه أوّلَ يوم من أيام النسيء الخمسة، فى حين وُلِدَ أبولّو فى اليوم الثانى، وتوفون / ست فى اليوم الثالث ـ فى غير أونه ـ وفى اليوم الرابع ولدت إيزيس من أبيها هرميس وكانت تعشق أوزيريس قبل ولادتهما، بل اقترنا فى رحم الأم، وولدت نيفتوس /. تليانا / أفروديت فى اليوم الخامس.

والأمر بعد ذلك ـ وعبر الرموز الكثيرة

(١) المقدمة ص ٩ .

(٢) ص ٣١ .

التى تحفل بها الأسطورة المصرية واجتماع آلهة العالم فى كنف إيزيس، أو برعايتها ـ يُجعل لمصر بآلهتها مكانة محترمة، وتركت آثاراً واضحة فى عبادة الشعوب المجاورة لها. ولندع هذه الأسطورة الأم إلى بعض ما تركه تراث العراق، أو الرافدين من حكايات مقدسة عن بابل بصفة خاصة. وكان يروى عنها أن الناس بعد الطوفان اجتمعوا بأرضها ولغتهم السريانية. ثم تفرقوا ـ كما يقول المسعودى فى كتابه أخبار الزمان ـ منهم عاد وثمود وطسم وجديس وارم وعملاق . ولهؤلاء أساطير متفرقة، وأكثرها مبتور، لكنها تحمل تصوّرات أسطورية بلورت فيما بعد ما يعرف بملحمة جلجاميش.

وتبدو شخصية جلجاميش ـ ويكتبه العراقيون قلْقميش ـ نتاج فكر مشترك بين السومريين والأكاديين. والحق أنه إذا كان للسومريين ـ وهم عناصر غير سامية ـ فضل وضع البذور الحضارية فى أرض الرافدين، فإن الأكاديين ـ وهم عناصر سامية ـ أحسنوا استنباتها، ووهبوا العالم من ثم حضارة أرهصت بحضارتى الكلدانيين والأشوريين.

وتتضح أفكار بلاد الرافدين فى ملحمة جلجاميش أكثر مما تتضح فى ملحمة الإينوما إيليش عن الخلق والتكوين، والملحمتان ـ على أية حال ـ لم توجدا قبل الألف الثانى قبل الميلاد، وقيل إن بينهما وبين إلياذة هوميروس نحو ألف وخمسمائة سنة .

وتعنينا هنا «جلجاميش» من حيث كونها أقرب مغامرات العقل الأولى إلى نفوسنا، وعلى الرغم من أنها حُفِرَتْ نظماً على عدة ألواح فخارية تَكَسَّر بعضها وتآكلت أسطر منها فإن بقاياها ـ وهو كافٍ جداً للفهم والاستنتاج ـ يدل على علّوّ كعبها. وقد عدّها عبد الحق فاضل بعد أن نقلها إلى العربية الحديثة شعراً يافعاً، من مقدم الأدب البشرى وأمّ الملاحم العالمية المشهورة.... واليوم تقف الملحمة ـ صوت بابل ـ بثقة وكبرياء أمام عصرنا، فيوليها الباحثون من العناية ما يضنون به على الكثير من المأثورات القديمة الأخرى» (١).

ولأن لباب الملحمة حكايات أسطورية، أو حكاية واحدة مقدسة، فإننا نلخصها بغير تعليق. لأن بعضها ـ ببساطته ـ يشرح بعضها، ولأن وقائعها التى جرت فى مدينة أوروك وما حولها ـ إذا استبعدت منها أسماء الآلهة ـ أقرب إلى وقائع قصص المخاطرات وإن كان محورها أو هدفها فى آخر الأمر هو الحصول عبثاً على الخلود،

(١) هو الذى رأى (ملحمة قلقميش) ط . بيروت ١٩٧٢ ، ص ص ٩ ، ١١ .

مع أن من الناس كجدّ جلجاميش واسمه أوتانافِشتم Utanapishtim نال نعمة الخلود بعد أن نجا من الطوفان، وتاق إلى العثور عليه عساه يجد عنده ما يؤهله لأن يعيش إلى الأبد، وتقول الملحمة :

لما أتمّ الخالقُ المعظم الشأن

خلْقةَ قلقميشَ فى أقوم بنيان

حباه بالحسن كثيراً شَمَسُ الكريمُ ...

الربُّ ... ربُّ العدل والشرائع

حُسْنِ الرجوله

كما حباه أدَدُ العظيمُ

ربُّ الحيا والرعد والزعازع

حباه بالبطولة

بعزّة وقدرة

وخصّه الآلهة العظامُ بالروائع

ثلثان منه إله

وثلثة الآخر إنسان

لكن هذا الإله الإنسان كان قاسيا على شعبه، وشكاه أبناؤه إلى الإله آنو والإلاهة أرورو، فلم يتغير الحال فى أوروك. وبقلب صحرائها عاش أقوى نصف إنسان اسمه انكيدو ـ بالجاف الفارسية ـ صادقة بعد أن تعرّف على بغيّ اسمها شمخة، كان لها فضل تهذيبه وتقريبه إلى الأدميين. وفيما كان يسير نحو التمدين باطراد، تعرضت عشتار الربة لجلجاميش وعبثا حاول آنو الجمع بينهما، إلا أن جلجاميش انصراف عنها إلى رعيته يصليها عذابا، وإلى انكيدو يواصله بصداقته. وفى إحدى الغابات القريبة من أوروك كان يعيش الوحش خمبابا ـ من فصيلة الغيلان ـ وكان يثير الذعر والهلع فتجهز له جلجاميش يساعده أنكيدو، ثم دخلا معا إلى الغابة من بابها المسحور ونازلا الوحش يساعدهما الإله شمس فقتلاه. كما قتلا ثوراً سماويا وضعته عشتار فى طريقهما لتثأر لنفسها، وكلُّ ما حدث هو أن المرض هَدَّ كيان انكيدو، وأنهى حياته، ليعيش جلجاميش حياته حزينا يبكيه بحراره ويصرح بأنه على فراش المجد أضجعه «كيما يجىء سادة الأرض يقبلون رجليك» و ....

لأطلقن شعرى

وأرتدى جلد الأسد

ثم أسير هائما فى كل قفرِ

إلى الأبد

وقد كان حتى وصل إلى جده بعد قتله الأسود وصراعه مع البشر العقارب وسؤالهم إياه «ما كان أغراك بهذا السفر الجسور» فذكر أنه يريد أوتانافشتم....

لأنه من مجمع الأرباب

أريد أن أسأله

عن الحياة والممات

وســـار فى طريق الشـــمس إلى جنة الجواهر، والتقى مع سدورى صاحبه الحانة باعتـبـاره «زين الأبطال الذى صـال وأردى من أردى»، وبعد لأى صافته وبينت أنه يقتل نفسه فى رحلة ميئوس منها، وعليه أن يفرح ليلا ونهاراً ويلبس من الثياب كل قشيب زاه، ثم دلتـه صـاحـبـة الحـانة على طريقـه إلى أوتانافشتم. وبالوصول إليه ـ آخر الأمر ـ دله على العـشب الذى إذا أكل منه لا يموت قط، فـأخـذ منه مـا أخـذ ورجع إلى الملاح سُرسُو نابو ليركبا عباب الموت.

وتقحم هنا قصة الطوفان الشهيرة، وإن تكن جاءت فى سياق سؤال جلجاميش لجده «كيف دخلت مـجمع الآلهة وفـزت بالحيـاة» فَسَردَ عليه الجد ما وقع له حتى تمّ إسكانه «بعيداً عند فم الأنهار».

وعلى أية حـال فقد رغب جلجـاميش فى السباحة ليغتسل ويغسل عنه أعباء الرحلة، فنزل إلى مـاء بئـر وقـد وترك عـشب الخلود على الأرض فابتلعته حية عظيمة .

وعندها يقعد قلقاشُ

ويستخرط فى البكاء

وكلّم الملاح قائلا:

من أجل من ياسر ينابو

كلّت يداى

من أجل من !

ولات رحـلة خلّد ولما يـشبُّ الخلـق عن الطوق، وامتـلأت نفوسهـم كيداً أعمـاهم عن الجادة، ومـا كـان ثمٌّ إله يمدّ يده إليـهم بما يصبون إليه.

وبرغم اخـتـلاف النصـوص التى تلقى الأضـواء على مسـارب الحـضـارة القـديمة وتوجهاتهـا، فإن ظهور القوى العقلية التى نظمت «حياة» الآلهة وأبطالهم الخـرافيين ـ ليس عند المصـريين والكنعـانيين أو حـتى الساميين كافةً وحدهـم ـ كان إيذانا ببلورة حكاية الإغـريق الأولى نقـلا عن المصـريين بواسطة كـريت، وتهـذيبـا لما نقلوه فى أسـاطيـرهم عن السـامـيين. ومن ذلك أسـاسـيـات الفكر الأسطورى نحن يوروبا الكنعانيـة/ الفينيـقيـة، وكـان الإله زيوس الأغريقى قد اختطفها من أخيها قدموس!

ولم يكن كثيـراً أن يقـرر فيلو الجـبيلى الذى عـاش إلى نهـاية القـرن الأول الميـلادى أن معظم الأساطير اليونانية «قد بنيت فى معظمهـا على أصول كنعانيـة شرقيـة»[1]. ولهذا حديث آخر!

(١) مغامرة العقل الأولى ص ١٠٠ .